باب الاجتهاد والأزهر

رحلة صاحب المنار الى القسطنطينية

(٢)

ذكرت في النبذة الاولى التي كتبتها لتنشر في (ج ١١ م ١٢) فنشرت في (ج ١٢ ص ٩٥٦) انني رحلت الى عاصمة الدولة العلية في أمرين عظيمين : إنشاء معهد علمي اسلامي ، وحسن التفاهم بين عنصري الدولة الاكبرين العرب والترك ، وأشرت الى ما صادفته من الارتياح للعملين كليهما عند وزارة حسين حلمي باشا ولكن استقالت تلك الوزارة قبل ان يتم على يدها ما وعدتني به من المساعدة على إنشاء المعهد العلمي الاسلامي والعناية باللغة العربية وأهلها . وكنت أظن ان وزارة ابراهيم حقي باشا تنجز ما كانت عزمت عليه وزارة حسين حلمي باشا لوجود بعض أعضاء الوزارة الأولى في الثانية فكنت أراجع بعض هؤلاء الاعضاء فأسمع كلاما حسنا ووعودا جميلة وعناية شخصية بالدعوة الى الطعام والسمر كما لقيت من الصدر الأول ولكن طال الامر على ذلك فرأيت أن أرفع أمر المساعدة على إنشاء المعهد الاسلامي لتخريج المرشدين الى الصدر الاعظم رئيس هذه الوزارة ففعلت ووجدت ان عنايته بالمشروع ليست دون عناية سلفه بل أعظم . ثم قال لي ان ما كان من السعي على عهد الوزارة السابقة قد ذهب بذهابها وانه ينظر في ذلك من جديد ولكنه ما أرجأ ولا سوف بعد ذلك بل أحالني على شيخ الاسلام وناظر المعارف ووعدني وعدا جازما بتنفيذ ما يتفقان معي عليه وكنت قد مهدت السبيل الى ذلك امام هذين الركنين العظيمين

لعلوم الدين والدنيا في الدولة فلما لقيتهما بعد ان عهد إلي وإليهما الصدر الاعظم بالمذاكرة شرحت المشروع لكل منهما فصادفت منهما منتهى الاصغاء والارتياح

كنت ذكرت المشروع لمولانا شيخ الاسلام بالاجمال فاهتم به وقال لابد لنا من تخصيص ليلة للبحث التفصيلي فيه ثم انه دعاني الى الطعام والسمر عنده قبل ان يعهد اليه الصدر الأعظم بالبحث معي في المشروع ثم تكلما في ذلك واتفق أن قابلت الصدر يوم موعد دعوة الشيخ فأخبرني بما عهد اليه — وذكر ذلك بلفظ الرجاء — وكان الشيخ قد دعا في تلك الليلة خالص افندي وكيل الدرس في المشيخة ليشاركنا في البحث . والمراد بوكيل الدرس مدير المدارس الدينية الذي ينظر في شئونها بالوكالة عن شيخ الاسلام الذي هو الرئيس العام لهذا القسم ولغيره من اقسام باب المشيخة . وقد كان سبق لي الاجتماع بوكيل الدرس اكثر من مرة فرأيته في مقدمة علماء الترك علما وفضلا وهمة ومروءة وسعة اطلاع في الآداب العربية بل لم أر في علماء العاصمة مثله في هذا ولما لقيته للمرة الاولى قال لي بعد التحية والثناء في حضرته الخاصة بالعلماء : لاتقول في منارك كما قال ابو الطيب المتنبي

على لاحب لايهتدي بمناره

بل قول ان منارك يهتدي به العالم الاسلامي كله . وقد ذكرت الآن ماتفضل به مولانا شيخ الاسلام عند ماقبته أول مرة في المنار، قال رفع الله منار العلم والدين على يده ولسانه : إنني أتمنى لو كان كل احد يعرف العربية ليقرأ المنار . ولسان الشيخ حفظه الله قد صقل اللغة العربية باقامته زمنا طويلا في بلاد اليمن ، وقد استنسخ منها كتبا نفيسة في العلوم الشرعية واللغة والتأريخ والادب لايوجد لها نظير في الآستانة ولا في مصر فضلا عما دونهما من الامصار ، وله عناية عظيمة بنفائس الكتب فهو قد انفرد باطلاع لم يشاركه فيه احد ممن نعرف من علماء هذه البلاد ولا علماء مصر والشام

كان بدء سمرنا بالفكاهات الادبية ثم انتقلنا الى البحث في المشروع فشرحت لهما ولمن حضر السامر وسائله ومقاصده ، ومقدماته ونتائجه ، فرأيت الوجوه تندى تهللا ، والاسارير تبرق بشرا وسرورا ، ووافقني الشيخان حياهما الله تعالى ، وزادهما إنصافا وكمالا ، على كل رأي رأيته ، وكل اقتراح اقترحته ، حتى خروج مدرسة « دار

العلم والارشاد من دائرة المدارس التي تحت رياستهما بحيث لا تكون تحت ادارتهما ولا مراقبتهما ، على أننا لا نستغني في ذلك عن الاستضاءة برأيهما المنير ، والاستفادة من علمهما الغزير ، ولكن بصفاتهما الشخصية ، لا بمكانتهما الرسمية ، ومن ثم وعدتهما باطلاع خالص افندي على نظام المدرسة الاداري وترتيب الدروس التي تقرأ فيها وعلى قانون الجمعية أيضا

وقد حدثني خالص افندي انه كان منذ سنين سمع من بعض فضلاء مسلمي روسية انني عازم على إنشاء هذه المدرسة الاسلامية العليا في مصر فسرّ بذلك سرورا عظيما ولما سافر الى الحجاز في آخر زمن الاستبداد عرّج على مصر واراد أن يزورني متنكرا ليتحدث معي في ذلك ولكنه بصر عن جنب بعين من عيون عبد الحميد « السلطان المخلوع » يتبعه أينما سار فكان هذا هو المانع له من الزيارة فهذه آية من آيات اغتباط هذا الاستاذ بهذا المشروع الذي هو خدمة عامة للاسلام والمسلمين نقوي رجاءنا في دوام مساعدته الثمينة له . واذكر له على سبيل الاستطراد خلقين آخرين من أعلا الاخلاق ولا سيما للعلماء وهما الإنصاف والشكر وآيتهما انني زرته مرة فرأيته ساخطا على ناظر الاوقاف خليل حماده باشا لتأخير اصلاح بعض المدارس التي يريد تنفيذ النظام الجديد للمدارس الدينية فيها ، فقلت له ان هذا الناظر محب للاصلاح ولا يرضيه هذا التأخير وانا ذاهب الآن لمراجعته في ذلك وأضمن على همته ان يأمر في الحال بانجاز العمل . وقمت من حضرته فركبت مركبة اوصلني الى نظارة الاوقاف وذاكرت ذلك الناظر الملازم في ذلك فأمر من ساعته بالاسراع بانجاز إصلاح تلك المدارس وبلغ المشيخة ذلك . وانني لم أر خالص افندي بعد ذلك في مكان إلا وكان يشكر لي ذلك ويحدث به الناس قائلا ان فلانا قد ساعدني في مسألة المدارس مساعدة عظيمة ... وذكر هذا مولانا شيخ الاسلام وغيره . فما أحسن وأجمل مساعدة من كان متخلقا بهذه الاخلاق ومتصفا بهذه الآداب !

ومن اطلع على حقيقة المشروع من أركان المشيخة الاسلامية الشيخان الجليلان ومن اصحاب الدرجة العليا في علماء الخاصة ولا سيما علم المعقول محمود أسعد

افندي ناظر الدفتر الخاقاني واسماعيل حقي افندي المباشر لي وموسى كاظم افندي كلاهما من الاعيان والمدرسين في المكاتب العالية — كل واحد من هؤلاء الاساطين قد اقرّ المشروع بل أعجب به كل الاعجاب فهو يعد من خير الاعوان والمساعدين عليه فان مشروعا دينيا كهذا المشروع لا يمكن تنفيذه في عاصمة السلطنة والخلافة اذا كان رؤساء العلماء وأساطينهم معارضين له او غير راضين عنه

هؤلاء هم العلماء الاعلام الذين اسعدني التوفيق بلقائهم ومذاكرتهم في المشروع وصادفت عندهم من العناية والقبول فوق ما كنت اظن وا كثرهم قد كلم ولاة الامور ورغبهم في إفاده في الوزارة السابقة والوزارة الحاضرة

وممن ساعدني في هذا العمل بجد و إخلاص الصديقان الفاضلان احمد نعيم بك بابان مدير المكاتب الرشدية بنظارة المعارف ويوسف ضياء بك في قلم الترجمة بنظارة الخارجية فهذا كان الترجمان بيني و بين الصدر الاعظم وغيره من الوزراء وله سعي آخر يشكر وان لم يذكر . واما احمد نعيم بك فمساعدته لا تقدر قيمتها ، ولا يستغنى عنها بسواها ، وان ما يرجى منه في المستقبل من المساعدة على التأسيس لأجلّ وا كبر مما كان في الماضي من المساعدة على التمهيد، فأسأل الله عز وجل ان يكافيء بكرمه وجوده جميع المساعدين ، و يوفقنا جميعا لخدمة الملة والدولة والدين ،

ما له حيلة سوى حيلة العا جز إما توسل أو دعاء

واني ابشر قراء المنار في جميع ارجاء العالم الاسلامي بانه سيشرع في شهر ربيع الاول ، الذي ولد فيه المصلح الاعظم صلى الله عليه وسلم ، بتأسيس مدرسة (دار العلم والارشاد) العالية التي يتربى فيها المرشدون الذين يقفون نفوسهم على خدمة الدين من الطريق الذي يجمع بينه و بين العلم والمدنية الصحيحة و يدفع عنه الشبهات بحيث يجمع المسلمون بين حقوق الروح والجسد وحسنتي الدنيا والآخرة وربما ننشر في الجزء الآتي نظام هذه المدرسة العليا . واسرع الآن بذكر شيء منه:

يتربى ويتعلم في هذه المدرسة طائفة من الطلاب على نفقة المدرسة فهي تنفق عليهم لا يكلفون طعاما ولا شرابا ، ولا لباسا ولا كتابا ، ومما يشترط فيهم أن يكون لهم الملم باللغة العربية والنحو والفقه، وأن تكون سيرتهم حسنة في أخلاقهم

وآدابهم وعبادتهم . وسيكون من الشدة في المحافظة على الاخلاق والفضائل في المدرسة ان الكذب يكون موجبا للطرد منها . ويشترط فيها أيضا حفظ القرآن ولكن يتسامح في هذا الشرط الآن ويكون للمدرسة سنة تمهيدية لحفظ القرآن ولبعض العلوم والفنون التي تقرأ في المدارس الابتدائية . وادارة المدرسة هي التي تختار هذا القسم الداخلي من طلاب المدرسة وتفضل بعضهم على بعض بالامتحان

اللغة العربية في البلاد العثمانية

وأما مسألة العناية باللغة العربية وتقوية الرابطة بين الترك والعرب التي سعيت لها سعيها منذ قدمت دار السلطنة فقد بلغني من الثقات أن رئيس الوزارة الحاضرة ابراهيم حقي باشا بقدرها قدرها، ووعد بأن يهتم بها وانني لم اوفق الى مذاكرته في ذلك بنفسي ولكنني ذاكرت غيره من أولي الشأن

وقد ذكرت جريدة العرب التي نشرت حديثا في العاصمة انه تقرر ان تكون اللغة العربية رسمية في الدولة كاللغة العثمانية بحيث يكون للدولة لغتان رسميتان وسمعت اكثر من واحد من الناس هنا يقولون ان هذا صحيح واستدل عليه بعضهم بوضع مبلغ من المال في ميزانية المعارف للسنة المالية القادمة لمعلمين للعربية وهو لا يدل عليه وانني متتبع لهذه المسألة وواقف على أطوارها فقد كانت النظارة تذاكرت في توظيف عشرة معلمين ثم في خمسة عشر معلماً للغة العربية ثم استقر الرأي على خمسة فقط سيعهد اليهم تعليم اللغة نفسها على اسهل الطرق الحديثة لصنفين من الناس احدهما بعض المرشحين للتعليم في المدارس وثانيهما بعض عمال الحكومة الذين يراد ارسالهم الى البلاد العربية لان الحكومة اقتنعت بان من لا يعرف لغة قوم لا يستطيع ان يقيم العدل او النظام فيهم واكثر المرشحين لاعمالها من الترك الذين لا يعرفون العربية فهي تريد أن تعلم هذه اللغة لمن تريد ان ترسلهم الى البلاد العربية . نعم ان في تعليم هذه اللغة لطائفة من المرشحين للتعليم في نظارة المعارف تمهيدا لتعليمها على وجهها وقد كان تعليمها مقررا رسميا من زمن الاستبداد ولكنه لم يكن ينفذ بل كان ولا يزال يعهد إلى من لا علم لهم بهذه اللغة أن يكونوا مدرسين لها في مكاتب الدولة حتى في البلاد العربية فترى المعلم التركي او الارمني يعلم النحو العربي لابناء العرب باللغة التركية !!!

المدارس الدينية في الآستانة

تألفت في العام الماضي لجنة من العلماء للنظر والبحث في إصلاح التعليم في المدارس الدينية الاسلامية وقد رغب اليّ الصدر الاعظم لوزارة الماضية أن أكون عضوا فيها وقال انه يكلم شيخ الاسلام في ذلك فاعتذرت لاسباب منها انني لم اكن اريد المكث في الآستانة اكثر من شهر . وقد أتمت هذه اللجنة عملها بهمة خالص افندي وكيل الدرس وكان من الاصلاح الجديد التوسع في اللغة العربية وفنونها وزيادة الفنون الرياضية والحكمة الطبيعية والتأريخ وتقويم البلدان . وقد سر أهل الآستانة سرورا عظيما بهذا الاصلاح . وقد احتفل بالشروع في هذا الاصلاح احتفالا حضره الصدر الاعظم وشيخ الاسلام وكثير من العلماء والوزراء والاعيان والمبعوثين فنسأل الله تعالى ان يوفق لانفاذه على وجهه المؤدي الى احياء علوم الدين والدنيا

الاسطول العثماني (*

بالذي اجراك يا ريح الخزامى ... بلغي (البوسفور) عن (مصر) السلاما
واجمعي من كل روض زهرة ... واجعليها تحايانا كاما
وانشري ريالك في ذاك الحمى ... والثمي الارض اذا جئت (الاماما)
ملك للشرق في ايامه ... همة الغرب نهوضا واعتزاما
أيها القائم بالامر لقد ... قمت في الناس فأحسنت القياما
جرد الرأي فكم رأي اذا ... سلّ في غمد النهى فلّ الحساما
وابعث (الاسطول) ترمي دونه ... قوة الله وراء وأماما
يحكلأ الشرق ويرعى ذمة ... رفع الله بها (البيت الحراما)
وثغوراً هنّ أبهى منظرا ... من ثغور الغيد يبدين ابتساما
خصها الله بأفق مشرق ... ضم في الآلاء (مصرا) و (الشآما)
حيّ يا مشرق أسطول الاولى ... ضربوا الدهر بسوط فاستقاما

*) انشدنا محمد حافظ افندي ابراهيم لنفسه هذه القصيدة في الليلة الموسيقية التي احييت برعاية رؤف باشا المعتمد العثماني هنا ورياسة الامير محمد علي حليم ليخصص ريعها للاسطول العثماني

ملكوا البر فما لم يسع مجدهم نالوا من البحر المراما
بجوار منشآت كالدمى اينما سارت صبا البحر وهاما
كلما أوفت على أمواجه سجد الموج خشوعا واحتشاما
كانت بالبحر اليها غلماً وعجيب يشتكي البحر الأواما
فهي في السلم جوار تجتلى تبهر العين رُواء ونظاما
وهي في الحرب قضاء سابح يدع الحصن تلالا ورجاما
ما نجوم الرجم من ابراجها اثر عفريت من الجن ترامى
من مراميها بأفكى موقعا لا ولا أقوى مراسا وغراما
وهي بركان اذا ما هاجها هائج الشر عداه وخصاما
جبلَ النار لقد رعت الورى أنت في حاليك لا ترعى ذماما
أنت في البر بلاء فاذا ركب البحر غدا موتا زؤاما
فاتقوا الطود مكينا راسيا واتقوا الطود اذا ما الطود حاما
حملت حربا فكانت حقبة نذرًا للموت يجتاح الانام
خافها العالم حتى أصبحت رسلا تحمل أمنا وسلاما

***

بعث الشرق من مرقده بعد حين جلّ من يحيي العظاما
ايها الشرقي شمر لا تنم وانفض العجز فان المجد قاما
وامتط العزم جوادا للعلى واجعل الحكمة للعزم زماما
واذا حاولت في الافق مني فاركب البرق ولا ترض الغماما
لا تضق ذرعا بما قال العدى رب ذي لب عن الحق تعامى
سابق الغربيّ واسبق واعتصم بالمروءات وبالبأس اعتصاما
جانب الاطماع وانهج نهجه واجعل الرحمة والتقوى لزاما
طلبوا من علمهم أن يعجزوا قادر الموت وأن يثنوا الحماما
وأرادوا منه أن يرفعهم فوق هام الشهب في الغيب مقاما
« قتل الانسان ما أكفره » طاول الخالق في الكون وسامى
أحرج الغيب الى أن برّه سرّه بزا ولم يخش انتقاما

قوة الرحمن زيدينا قوى وافيضي في بني الشرق الوئاما
افرغي من كل صدر حقده املأ التأريخ والدنيا كلاما
اسأل الله الذي المسنا خدمة الاوطان شيخا وغلاما
ان ارى في البحر والبر لنا في الوغى انداد (توجو) و (أوياما)

﴿ كتاب النصائح الكافية لمن يتولى معاوية ﴾

يلح علينا المتناظرون والمتعادون في هذا الكتاب من اهل سنغافوره وجاوه بأن نبدي رأينا فيه ويقولون في كتبهم الينا انهم ينتظرون ذلك عاجلا . وظن بعضهم أن ما كتب عنه على غلاف المجلة لنا وانه رأي غير صريح فطلبوا ماهو أصرح منه

وجوابنا للجميع أننا لم نجد فراغا لنقرأ فيه الكتاب لنبدي رأينا فيه وانا قد سافرنا إلى دار السلطنة في أواخر رمضان لأجل خدمة الاسلام بما هو اجل وانفع من قراءة ذلك الكتاب وشغلنا بذلك عن كل شيء إلا كتابة مالا بد منه للمنار وان ذلك التقريظ أو الاعلان ليس لنا وانما هو كسائر الاعلانات التي تنشر على غلاف المجلة يكتبها مدير مكتبة المنار وانا ننصح للمختلفين أن يتقوا العداء واتباع الاهواء لاجل اختلاف الآراء ، فتعادي المسلمين ذنب اكبر وأضر من جرح معاوية وتعديله وكنا نتمنى أن سيكون لهذا التأليف فتنة عند ما أعلن المؤلف عزمه عليه بعد أن وقع الخلاف هنالك بينه وبين آخرين في لعن معاوية واستفتينا في المسألة فأفتينا بعدم اللعن ، فان المؤلف يومئذ كتب الينا يقول انه مخالف لنا فيما أفتينا به وانه سيبين رأيه في كتاب حافل يؤلفه ويطبعه . وأتذكر أني كتبت اليه ان من رأيي أن لا يفعل ولكنني ما عاديته ولا أعاديه لانه خالفني في هذه المسألة وهو لا يعاديني كذلك . وهذا هو الواجب على كل مسلم فقد نهينا عن التحاسد والتباغض والتدابر وامرنا أن نكون اخوانا ، ولم يشترط المرشد الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الاوامر والنواهي أن نكون متفقين في كل مسألة لان هذا من المحال . فاتقوا الله أيها المسلمون في انفسكم وليعذر بعضكم من يخالفه وان جادله فليجادله بالتي هي احسن ولا يجعله اقل من اهل الكتاب الذين نهينا أن نجادلهم الا بالتي هي أحسن الا اذا ظلموا بالحرب والقتال ، ولا كلام لنا مع اهل السفه والطيش والضلال .

﴿ الى مشتركي المنار ﴾

كلمة شكوى

لقد رأينا من مطل كثير من المشتركين في السنين الاخيرة عجبا ! ولئن كان قولنا يشمل كل بلد فيه مشتركون للمنار فانه موجه بنوع خاص الى مشتركي القطر التونسي الا قليلا منهم ، والى معظم مشتركي الجزائر . هؤلاء واولئك نكتب لهم في المجلة التذكير تلو التذكير فلا يبالون ولا يتذكرون ! حتى اننا في الآونة الاخيرة وضعنا لهم فقرة دائمة على غلاف المجلة ، وكتبنا لهم كتابات خاصة فيما بان لنا عليهم فلم يحقق أحد منهم لنا أملا ! وما كنا نحسب أن قارئا يقرأ المنار وكله عظات ونذر وحث على التأسي بأسلافنا الكرام بأعمالهم — يسهل عليه ان يكون من أهل اللي والمطال ، والاعراض عن التذكير بأداء الحقوق !

اننا نعيذ أهل هذين القطرين أن يكونوا متعمدين هذا السكوت الطويل الذي لم نستطع له تأويلا ، وحاشاهم أن يكونوا ممن يأكلون أموال الناس بالباطل وفيهم العلماء والقضاة والحامون وكبار موظفي الحكومة ، وهؤلاء هم عنوان ارتقاء الامة وانموذج المجد فيها ، وانه ليسهل علينا ان نتلمس لهم في كل يوم عذرا دون أن نرميهم بمرجمات الظنون ، فعسى أن يكونوا عند حسن ظننا بهم وأن تكون هذه الفقرة أخرى كلمات الشكوى منهم ، وأن يكون ما بعدها أولى كلمات الشكر لهم !

واننا لنأسف أن يصبح مشتركو روسيا ممن يشتكى منهم وهم الذين لم يذكروا في الماضي الا بالشكر والثناء ! فقد مرت سنين ثلاث وكثيرون منهم لم يبشوا الى ادارة المجلة بما عليهم ! هؤلاء هم الذين كنا نباهي بهم ونعد مسارعتهم الى اداء الحقوق عنوانا على احتفاظهم بكثير من الفضائل الاسلامية ، ولقد يعز علينا أن يتزلزل اعتقادنا فيهم فاننا بقينا في حيرة من امرهم ولا سيما بعد أن كتبنا لهم تذكيرا في جريدة « وقت » التي تصدر في اورنبورغ مرتين فلم يزدد ذلك كثيرهم الا اعراضا وصاما !

وكذلك كانت الحال مع مشتركي جنوبي إفريقية والبرازيل والصين و بلاد فارس وفريق من مشتركي جاوة والهند وسنغافورة فقد كتبنا اليهم مذكرين مبينين لهم ما عليهم فلم تنفع الذكرى الا الاقلين منهم !

ثم ما بال مشتركي السودان ارتضوا لأنفسهم في العهد الاخير ما كنا نجلهم عنه ؟ فقد كانوا من أفضل المشتركين وفاء ، وأحسنهم اداء ، حتى اننا في السنين الماضية ما كنا نبعث لأحد منهم بتذكير خاص ، بل كان من عادهم المبادرة الى الارسال في اول شهر من شهور السنة ، وكنا نعد من جملة الشواغل الكثيرة في المحرم التوقيع على حوالات مشتركي السودان ! ولكنهم في هذا العام وفي العام الماضي خالفوا سنتهم المحمودة ، فبعثنا اليهم بمكتوبات خاصة مطالبين لهم بما عليهم فلم يستجب لنا الا القليلون !

اما مشتركو مصر فما زلنا نحمدهم على اعتدالهم فقد كانوا ولا يزالون على وتيرة واحدة : يتذكرون اذا ذكروا ، ويعطون اذا طولبوا ، ولكننا نشكو من بعضهم ومن أهل الأقاليم ولا سيما مشتركي الوجه القبلي ومديريتي البحيرة والشرقية ومحافظات دمياط والسويس وبورسعيد فقد مرت سنوات وهم لم يؤدوا الى المجلة حقا ! فعسى ان يكون لهم اسوة حسنة بأهل العاصمتين مصر والاسكندرية

واما مشتركو سورية وفلسطين فهم من احسن الناس وفاء ، واننا نشكر لوكلاء مدنهما الكملة ، فانهم قد خدموا المنار أجل خدمة ، وعسى أن يكون مشتركو بيروت وطرابلس الشام وحمص والاكراد وبغداد وجبل عامل ادوا ما عليهم للوكلاء ، ومن ليس لديهم وكلاء فليبعثوا الينا بما عليهم مباشرة فنكون لهم من الشاكرين

هذا وان في كل ما ذكرناه من البلاد ناسا سباقين إلى الخيرات يبعثون بقيمة اشتراك كل سنة قبل دخولها ، فإلى هؤلاء نوجه عاطر الثناء ، ونخصهم بالتقريظ والاطراء

حسين وصفي رضا

(التأريخ الهجري الشمسي) طبعت الكراسة الاولى من هذا الجزء وفيها هذا التأريخ على ما كان عليه خطأ لأن سنة ١٢٨٥ تصرمت ودخلت سنة ١٢٨٦

الفصل السابع عشر (*)

(بين روح وروح)

أو

(بدء الوحي)

في « حراء » حدثت الحادثة الاولى من التأريخ الجديد الذي سنرى فيه بطل السيدة « خديجة » فائقا فواقا عظيما مدهشا : وهذه الحادثة العظمى التي هي مبدأ هذا التأريخ هي أن روح محمد (صلى الله عليه وسلم) اجتمع هنالك في « حراء » بروح غير بشري وأبلغه هذا الروح الغريب رسالة شأنها عظيم

نحن في الفصل السابق ذكرنا من أمر الروح ما فيه كفاية ، ذكرنا فيه ما لعل القاري، ينشرح به صدره الى القول بوجود موجودات ذات حياة على أنواع شتى ولا يشترط في بعضها أن تكون لها أشباح كالأشباح البشرية . وهذا قد سبقنا البشر كلهم الى القول به ولم يشذ عنه الا قليل وهم كلهم قائلون ان بين الروح الذي هو انسان وبين الارواح الاخرى اتصالات ، فأنا كاتب هذه السطور لست بمبتدع خبرا ليس له مثال بذكر هذه الحادثة التي قد يراها غريبة من يحبون التباعد عن الروحيات ،

(*) تابع لما نشر في (ص ٦٤ م ١٣) من سيرة السيدة خديجة

ومن يؤمنون بها احيانا ويكفرون بها أحيانا من حيث يشعرون ومن حيث لايشعرون

هذه حادثة عظيمة في السيرة التي نحن آخذون بتحريرها ، ونحن مقتصرون بوقوعها ، ولا يدعونا الى استماع هواجس المنكر الا الحرص على القيام بحسن المرافقة . فان كان المنكر ينكر عالم الروح من حيث هو فالحق أنّ حيلتنا البيانية معه قليلة ، ولكني اظن أنّ محادثتنا اياه بهذه المسألة في الفصل السابق قد تجديه . وان كان ينكر العلاقة بين الروح الذي هو الانسان والأرواح الأخرى فليس لنا ما نتوسط به الى ابلاغه هذا المشهد غير نفسه ، فليرجع اليها كثيراً وليدقق في حديثها جيدا . وان كان ينكر صدق محمد (صلى الله عليه وسلم) في تحديثه بهذه الحادثة مع أنه لا ينكر وقوع مثلها لغيره فالخطب في مذاكرته سهل

كان «محمد» صادقا شديد الحرص على الصدق واشتهر منذ حداثته بلقب « الامين » ، قد عرفنا صدقه كما عرف الناس شجاعة أناس من الشجعان ، وكرم أفراد من الكرماء ، وعلم جماعة من العلماء ، وكما عرف بنو اسرائيل صدق الانسان موسى الذي كان قد سمع الكلام الالهي ، وظهرت له الارواح العلوية ، وكما عرف النصارى صدق الانسان عيسى الذي كان روحا من الله ، وكما عرفوا صدق تلاميذه وأنصاره الذين حكوا حكايته وبثوا بشارته

هذا الصادق الامين رجع ذات يوم من حراء منتقع اللون ، مرتجف الصدر ، يملوه اضطراب الوجل الحائر ، وخشوع المخبت الصابر ، فما وقع نظر السيدة « خديجة » عليه حتى عرفت أن أمراً عظيما قد ألمّ به .

تفتق لأول وهلة قلبها ، وساءلت بسرعة البرق نفسها : ماذا أصاب حبيبي ؟ ما خطب ذلك القلب الذي لا تفزعه الرجال ، ولا تجزعه الاهوال ؟ ما بال ذلك الصدر المبسوط تنتبه الرجفات ، وما بال ذلك الطرف القريب تكاد تبادره العبرات ؟ رباه ! رباه ! ماذا اصاب حبيبي ؟ قل لي أيها الحبيب ما ذا أصابك ؟ حنانيك قل لي ! قل لي !

— دثروني . دثروني

— لا صبر لي عن معرفة الامر الآن فقصه علي

— بينا أنا في حراء اذ جاءني روح فقال لي اقرأ قلت له « ما أنا بقارىء » فأخذني وغطني غطة (*) وقال لي « اقرأ » قلت « ما أنا بقارىء » ثم غطني الثانية وقال لي اقرأ فقلت « ما أنا بقارىء » . قال لي : « اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الاكرم * الذي علم بالقلم * علم الانسان مالم يعلم * »

— ألم تسأله من أنت ، ومن جاء بك ، وماذا تريد مني ؟

— سمعته يقول أنا جبريل جئت لابلغك رسالة ربك

* * *

هذه هي الاولى من الكلمات التي سمعها محمد (صلى الله عليه وسلم) من ذلك الروح الذي ظهر له باسم جبريل وهو من النوع المسمى ملائكة والآن قد فتح لصاحب « حراء » بابان : باب حيرة جديدة وباب هدى ، فأما الحيرة فظاهرة يكاد يراها كل من سمع هذه الحادثة فان ظهور الارواح غير البشرية لافراد النوع الانساني ليس من المألوف ، فاذا صادف أحد

(*) ضمني بشدة وضغط

الافراد شيئا من هذا القبيل لا يقوى طبعه البشري لأول وهلة على تحمل مواجهته والانس به . كل واحد منا يعرف هذا من مفاجأة الامور التي لم تكن تخطر في باله مع أنها من الامور التي تقع كثيراً فكيف الحال بالامور التي وقوعها نادر الى حد أن بعض الناس لا يصدق بوقوعها

انه ليخيل الينا أن صاحب «حراء» قد دهش لما سمع صوت ذلك الروح يناديه «اقرأ» يخيل الينا أنه قال في نفسه : رباه ماهذا الذي اسمع ؟ رباه ليس ههنا من بشر فهل يتكلم غير البشر ؟ رباه ماذا يراد بي ؟ اني أعلم أني في يقظة لا في منام، واني اسمع كلاما لا ريب فيه، واني أحس بضاغط يضغطني ولا عهد لي بمثل هذا من قبل ، رباه ان هذا أمر يدهش فكن اللهم عوني ، وخذ بيدي ، وثبت فؤادي ، وقوّني على مواجهته اذا عاودني .

ثم انه ليخيل الينا أن المفاجأ بذلك الروح هكذا كان يتناجى في نفسه ويناجي ربه بمثل هذه الكلمات وهو ذاهب الى خديجة فلما لقيها قال «دثروني دثروني» . واختصر لها الحديث اختصاراً

دثرته «خديجة» وجعل العرق يتصبب منه . وقد عاوده الروح بعد ذلك . وقال له «يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر * »

***

ان من فاجأ بمثل هذا جدير بالحيرة وهذا ما أشرنا اليه هنا ولكن مع هذه المفاجأة قد أونس باسم ربه فكان هذا الاسم الجليل حريا ان يكون دواء شافيا من تلك الحيرة وكافيا أن يفتح باب الهدى والطمأنينة

الروح «جبريل» يقول له أنا من عند ربك ، جئت أبلغك رسالته ، جئت ألقي عليك وحيا من عنده ، وفي هذا الوحي الذي جاءه به مفتاح لتلك المغالق التي اشرنا اليها آنفا التي كانت تقف أمامه دائما .. في هذا الوحي مبدأ ارشاد وتعريف له بربه خالق الانسان ، في هذا الوحي اهابة بفكره لتناول معارف عليا ، وتعاليم عظمى ، في حقائق الوجود

كانت الحيرة تردفها الحيرة . وأما هذه الحيرة فان الهدى يردفها لأن العناية الالهية ظهرت أتم ظهور ، والعطاء الرباني سلّم جليا لتلك اليد التي كانت مرفوعة في « حراء » تلقاء السماء

وكان أول معراج عرج بصاحب هذه اليد عليه الى تلك الحضرات القدسية هو اعلامه علم اليقين بأرواح عالية تتكلم هي غير الارواح الانسانية الحالة في هذه الصور البشرية وذلك بجعل واحد من هذه الارواح واسطة بينه وبين مفيض الحياة والعلم والارادة

هذه عناية كبيرة جدا لم يرو التأريخ وقوع مثلها الا لقليلين : منهم النبي ابراهيم ، والنبي موسى ، والنبي عيسى (عليهم السلام)

يقول له الروح «جبريل» «اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق » فهذا القول العربي الجليل يصور له من النشأة المادية في خلق الانسان صورة يتجلى فيها عظيم قدرة الباري ، المصور ، وعظيم ضعف هذه الصورة البشرية لولا روح الله المد لها

يقول له الروح « جبريل » « اقرأ وربك الاكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » وهذا القول المجيد يصور له من النشأة الروحية في كون الانسان صورة يدهش الالباب فيها عظيم صنع الله في ترقية

الانسان بواسطة قصبة لا يؤبه لها لدى النظر . نعم بواسطة قصبة نعني بها القلم كان الرقي العظيم العقلي لهذا الكائن الذي خصت العناية الازلية نوعه بمزيد خصائص

وغريب في الامر أن المواجه بهذا الخطاب لم يكن من ارباب البراعة بل كان أميا لا يعرف القراءة ولا الخط بالقلم فما معنى أن يكون أول وحي يوحى اليه هو الامر بالقراءة والتنويه بالقلم

لا بدع . لا بدع . ان معنى ذلك هو تكرم الله عز وجل على البشر باعطائهم آية أخرى يفقهون بها أنه قادر أن يعلم من لدنه بغير ما عرفوا من الوسائط من شاء ما شاء إذا شاء . وأن يجعل غير القارىء قارئا ولكن يقرئه بالروح صحفا ربانية قد أنزلها الله على قلوب البشر بأساليب شتى أجلها وأعلاها هذا الاسلوب

* * *

ما أجل هذه العناية وما أجدر « خديجة » بالسرور الذي ليس فوقه بها ولكن هل عرفت هذا السر الرباني تماما ؟ نعم كان قلبها القوي خليقا أن لا يفزع أمام هذه الحادثة التي هي غريبة في ظاهرها بيد أنها كانت محتاجة أن تطرق تفسير هذا السر وهذا المظهر الجديد من أبوابه